الفصل الثالث

التصوير فى المآوى الصخرية فى شرق أسبانيا

لم يقتصر فن التصوير فى أواخر العصر الحجرى القديم على الكهوف فى منطقة الدوروودونى والپرنيزبل وجد إلى جانب ذلك فى نفس العصر فن تصويرى فى شرق أسبانيا حيث عثر على حوالى ٥٠ مأوى صخرياً يحوى بعضها مئات من الصور أغلبها مرسوم بالألوان على جوانب الصخور وقليل منها بالخطوط المحفورة وذلك لشدة صلابة الصخور فى هذه المنطقة ، أما التحف المنقولة فكانت قليلة جداً بالنسبة لمنطقة الكهوف .

ومن أهم الأماكن التى عثر فيها على صور فى شرق أسبانيا مورلادى لاڤيلا وأرانا فى تراجونا وڤالتورتا فى كستلون وكانتوس دى لاڤيزيرا فى مورسيا ولوس توروس فى تورمون بمقاطعة ترويل .

ويعتقد أن الفن التصويرى الذى انتشر فى هذه المنطقة فى أواخر العصر الحجرى القديم يمثل الانتاج الفنى لحضارة تختلف بعض الشىء عن الحضارة الفرنجية الكنتبرية التى أنتجت التصوير الكهفى والتحف المنقولة التى سبقت الاشارة إليها . وقد أطلق البعض على هذه الحضارة اسم الحضارة الجفسية أو الكيسية وذلك نسبة إلى الجفس

أو كيسا القديمة فى تونس التى عثر فيها على جزء من مخلفات هذه الحضارة .

وفى هذا الوقت كان إقليم شرقى أسبانيا أكثر جفافا من منطقة كنتابريا مما ساعد على رسم الصور فوق الصخور المكشوفة فى العراء أو الموجودة فى مآو غير عميقة . ولكن كان الإنسان الذى يقطن هذه المنطقة يعيش أساساً على الصيد شأنه فى ذلك شأن أخيه فى منطقة كنتابريا .

اصالة صور المآوى الصخرية :

ونظراً الى أن هذه الصور لم تكن مخبأة فى كهوف مهجورة أو مغمورة بطبقات مؤرخة وإلى أن المخلفات الأثرية التى تساعد على التأريخ نادرة فى المآوى الصخرية فقد ثار كثير من الشك والنقاش حول اصالتها وارجاعها إلى العصر الحجرى القديم إلا أن هناك كثيرا من الدلائل توحى بأن تلك الصور من إنتاج الإنسان الصياد فى أواخر العصر الحجرى القديم لا سيما وأنه قد ثبت بالشواهد القاطعة أن إنسان ذلك العصر قد أنتج صورا فى الكهوف لا تقل اتقانا وروعة إن لم تزد عن الصور فى أسبانيا الشرقية .

ومن الأدلة التى تؤكد إصالة هذه الصور ورجوعها إلى العصر الحجرى القديم صور بعض حيوانات كانت تعيش فى ذلك العصر ثم انقرضت مثل صورة البيزون التى وجدت فى كوجول وصورة الإيل

التى عثر عليك فى الكريسو وصورة الغزال الجبلى التى اكتشفت فى تورتوزيلا وحيوانى الكركدن والإيل اللذين صورا فى ميناتيدا .

وفوق ذلك فإن هناك شبها بين صور بعض النساء فى هذه المنطقة (شكل ٤٥) وبعض التماثيل النسوية الصغيرة التى أنتجت فى العصر الحجرى القديم مثل التمثال العاجى الصغير الذى عثر عليه فى لسبيج فى هوت جارون (شكل ٣) .

ثم إن التشابه فى أسلوب الصناعة سواء أكانت حفراً أم تصويراً مع صور الكهوف التى ترجع إلى العصر الحجرى القديم وكذلك التشابه فى مراعاة تقليد الطبيعة فى صور الحيوانات والتماثل مع صور الكهوف بخصوص بعض الموضوعات كصور الخيول يرجح فكرة الإصالة .

ويضاف إلى ذلك أن بعض الصور وجدت تحت صور أخرى من الطراز المسمى بطراز المجموعة الثالثة الذى يرجع إلى أواخر العصر الحجرى الجديد وذلك مما يؤكد رسمها قبل هذا العصر .

وشكل (٤٤) يمثل صورا مختلفة من المأوى الصخرى فى كانتوس دى لاڤيزيرا فى مورسيا وبصرف النظر عن الأشكال المحورة للحيوانات والآدميين التى ترجع إلى عصر المجموعة الأسبانية الثالثة المتأخرة فإنه يلاحظ أن رسوم الأبقار والخيل أقرب إلى الطبيعة وتمت ببعض الصلة إلى صور الحيوانات فى الكهوف ويمكن مقارنة بعض

رسوم الخيل يرسم باللون الأحمر لحصان صغير فى بورتل يرجع إلى التصوير الكهفى

ومما يثبت إصالة رسوم المآوى الصخرية كذلك أنه قد وجد بين هذه الصور إلى جانب الصور الطبيعية صور آدمية محورة على درجات متفاوتة وبملاحظة حلقات التحوير منذ بدايته إلى نهايته يمكننا المقارنة بين بعض الأشكال المحورة فى أواخر مراحل تحويرها بأشكال محورة لآدميين مرسومة على حصوات عثر عليها فى ماس دازيل وترجع إلى العصر الأزيلى وقد سبقت الإشارة إليها (شكل ٤٢) وهذا يرجح أن الأشكال المحورة فى بداية مراحل تحويرها التى وجدت مرسومة فى المآوى الصخرية ترجع إلى عصر أقدم من العصر الأزيلى أى إلى العصر الحجرى القديم .

أسالب صور المآوى الصخرية ومقارنتها بصور الكهوف :

كان كثير من الصور ملونا بألوان متعددة إلا أنها لم تبلغ درجة الاتقان والمهارة التى بلغتها صور الكهوف وخصوصا صور كهف التاميرا . ولما كانت المآوى الصخرية غير عميقة وكثير منها مكشوفا فى العراء فإن الصور كانت عرضة للتلف وذلك بسبب تعرضها للعناصر الجوية المختلفة من شمس ومطر ورياح وغيرها وكذلك نتيجة لما تسببه حشائش الصخور .

وعلى الرغم من التشابه الكبير الذى سبقت الإشارة إليه بين فن المآوى الصخرية وفن الكهوف فيما يختص بأسلوب الصناعة وطريقة

تصوير بعض الحيوانات وبعض الموضوعات فإنه يلاحظ أن هنالك بعض الاختلافات بين الفنين منها أنه عثر فى المآوى الصخرية على بعض صور تشبه الكلاب وهذه نادرة جدا فى الفن الفرنجى . كما أن الصور الآدمية فى شرق أسبانيا كبيرة وهى ليست فى الغالب مقنعة وهى أشد حركة وحيوية إلا أنها أقرب إلى التحوير والتجريد خصوصا فى شكل التفاصيل والأطراف ولذا يلاحظ عليها أنها تعبر عن الروح الكامن مع إغفال التدقيق فى المظهر الخارجى وفى ذلك شىء من التعبيرية . أما من حيث المظهر العام فيصور النساء وقد ارتدين ملابس نصفية تغطى أسفل الجسم فقط وفى ذلك صلة بالرداء فى تمثال غادة لسبيج من العصر الأورجناسى الأعلى (شكل ٣) . أما الرجال فيصورون وهم يحملون أسلحتهم المختلفة من أقواس وسهام ويتحلون بريش يضعونه على رءوسهم وهذا كله مخالف بوجه عام للصور الآدمية فى الكهوف .

ومن الخلافات الخاصة بالتكوين العام ما سبقت الإشارة إليه من أن صور الكهوف أغلبها صور فردية لا تعنى بموضوع قصصى أو سرد حادثة أما فى صور المآوى الصخرية فيتمثل كثير من الموضوعات حيث يشترك فى الصورة الواحدة عناصر عدة أحيانا تصف حادثة أو تحكى قصة . حقا إن بعض الصور الكهفية تصور موضوعا يتكون من وحدات كثيرة مثل صورة الرجل المقتول بين البيزون الجريح والكركدن فى كهف لاسكو (شكل ٢٣) وصورة الدب الجريح

يهاجم رجلا بينما يهرول زميله لنجدته فى بشياليه فى دوردونى (شكل ١١) وكلاهما يرجع إلى أواخر العصر الأورجناسى وكذلك صورة صيد البيزون فى لوچرى بس من العصر المجدالينى الرابع وصور أخرى لمواكب من العصر المجدالينى السادس فى ريموند وفى شاتو ديزايزى إلا أن هذه الصور ذات الموضوع القصصى نادرة فى الكهوف بالنسبة لآلاف الصور الفردية الأخرى . أما فى صور المآوى الصخرية فهذه الصور الموضوعية عامة ومن أغلبها مناظر الصيد كما توجد مناظر مواقع حربية بالإضافة إلى صور أخرى ترمز إلى الحياة الاجتماعية والعائلية والاقتصادية .

ومن مناظر الصيد شكل (٤٦) وهو رسم من لوس توروس فى ترول وهو يشمل صورة صياد عارى الجسد قد حلى رأسه بريشات وحمل قوسه وسهامه ، وعلى البعد منه حيوان يشبه أنثى الغزال قد مد رأسه وثنى أطرافه والشكل العام يشير إلى أن الصياد بعد أن أصاب فريسته التى أعجزتها الاصابة وأخذت فى النزع قد اتجه نحوها . ويلاحظ هنا الفرق بين أسلوبى رسم الحيوان ورسم الإنسان فالحيوان أكثر طبيعية أما الإنسان فأكثر تعبيرية ومطول الجسم مهمل التفاصيل كثير التحوير وإن كان لا يخلو فى شكله العام من نشوة الانتصار والثقة بالنفس .

وشكل (٤٧) صورة جميلة أخرى من ڤالتورتا فى كستلون وهو وهو يمثل إحدى حالات الصيد فقد رسم الصياد وهو يسابق الريح

عدوا خلف غزالتين رسم الفنان إحداهما كاملة واكتفى برسم النصف الأمامى من الحيوان الآخر ، ويرى الصياد يطلق سهامه من قوسه نحو الحيوانين وقد أصاب أحدها بطن الحيوان الكامل فسالت منه الدماء . ويرى الصياد وقد حلى رأسه بريشات وربما كان مرتديا رداء يشبه السروال .

وصور الحيوانات أيضا أقرب إلى الطبيعة بينما الصورة الآدمية محورة أو مجردة ولكن تجريدها يساعد على التعبير عن الحركة والسرعة والمقدرة على إصابة الهدف .

وشكل (٤٨) رسم لمعركة حربية من جاليريا دل روبل فى تاراجونا وعرض الصورة حوالى ١٢ بوصة وهى مرسومة باللون الأحمر الداكن وتكوين الصورة يدل على أن المشاهد كان بربوة عالية تطل من بعيد على أرض الواقعة . والأشكال كلها خطوط تجريدية تعبر عن المنظر العام مع إهمال التفاصيل اهمالا تاما ولكنها مملوءة بالحياة والحركة وتعين الاتجاهات بدقة ووضوح . ومما يستحق الذكر أن الفنان قد نجح هنا فى الاحتفاظ بوحدة الصورة على الرغم من صعوبة تحقيق ذلك فى المواقع الحربية حيث الأفراد كثيرون ومتباعدون خصوصا إذا كان السلاح المستعمل هو القوس والسهم ، ولعل السر فى ذلك مهارة الرسام فى توجيه جميع الحركات والإشارات نحو مركز واحد بالقرب من منتصف الصورة .

ومن الصور الجميلة التي تصف أحد مناظر الحياة الاجتماعية والاقتصادية في ذلك العصر شكل (٤٩) وهو رسم من أرانا في تراجونا يمثل امرأة تجمع العسل وقد تطاير النحل حولها .

ويلاحظ على التصوير في أسبانيا الشرقية عموماً أمور لها مغزاها منها أن الصور الموضوعية الكثيرة تشير إلى تقدم الحياة الاجتماعية وتطورها نحو التعقيد . وليس من شك في أن اختلاف الموضوعات يدل على أن الفن قد صار أداة يعبر بها الإنسان عما يرى عليه دنياه وما يحس به من رغبات وما يختلج في نفسه من عواطف فرح وأمل وحزن وألم وغير ذلك ويسجل عن طريقها أهم حوادثه ومشاهداته. ومنها أن الميل إلى التحوير كان فاتحة عهد جديد في التصوير ومظهراً من مظاهر تغير النظرة إلى الحياة والعناية بالفكر والشعور والروح الى جانب الجسم والمظهر الخارجي ولاشك أن هذا التغير صحب تغيراً اقتصادياً كان من شأنه فتح آفاق جديدة للحصول على الغذاء بالإضافة الى الصيد . وفضلا عن ذلك فإنه يرجح أن بعض هذه الصور كان يقصد منه أن يكون ذات قيمة سحرية الا أن النظرة الى هذه الأهمية السحرية لابد وأنها كانت أكثر تعقيداً من نظرة إنسان الكهوف وذلك تبعاً لتعقد الحياة والمشاعر والتقدم الحضارى .

وهناك شبه كبير بين فنون البشمن في جنوب افريقية والتصوير في العصر الحجرى القديم ولعل التشابه في الأساس الاقتصادى وهو

الصيد كان له أثر كبير فى إنتاج فن متشابه . فلقد صور البشمن حيواناتهم أقرب ما تكون الى الطبيعه ورسومهم الآدميه ذات مظهر تعبيرى كما اهتموا بتسجيل حوادث الصيد . ثم إنهم تصوروا الفن تصوراً يقارب تصور الانسان له فى العصر الحجرى القديم من حيث اتخاذه وسيلة سحرية للحصول على القوت ، واعتباره سجلا لحياتهم وعواطفهم .

وشكل (٥٠) رسم من مأوى صخرى بالقرب من أورانج اسبرنج من عمل البشمن وهو يمثل رجالا مقنعين فى جلود غزلان فى حلقة رقص وقد وقف حولهم النساء يصفقن . ويلاحظ الشبه مع فن الكهوف فى رسم الرجال مقنعين ومع فن المآوى الصخرية فى رسم الأجسام مطولة من غير عناية بالتفاصيل .

ومن المرجح أن الحضارة الكبسية التى أنتجت صور المآوى الصخرية قد امتدت من أسبانيا إلى جبال الأطلس وإلى جميع شاطىء شمال أفريقية فقد وجدت صور مشابهة فى هذه المناطق إلا أنها أنتجت على يد أقوام يعتمدون فى حياتهم على الرعى .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه عثر فى مصر العليا على بعض صور صخرية مشابهة لصور المآوى الصخرية ومرسومه باللونين الأحمر والأسود مما يرجح امتداد هذه الحضارة الكبسية إلى صعيد مصر .

وقد أخذ الفن الكبسى فى العصر الحجرى الوسيط يتطور نحو التحوير نظرا لاختلاف النظرة إلى الحياة وتغير الأساس الاقتصادى إذ بدأ الإنسان يزرع الأرض ويتأثر بغيره فى الجهات الأخرى ومن هنا تعلم صناعة الأوانى الفخارية وربما جاءت هذه الصناعة من بلاد العراق ومصر .

obeikandl.com